الانكسار في شعر الصمة بن عبد اللّه القشيري

"دراسة حجاجية"

إعداد

إيمان عصام خلف كامل

المدرس بقسم الدراسات الأدبية

كلية دار العلوم - جامعة المنيا

الانكسار في شعر الصمة بن عبد الله القشيري "دراسة حجاجية"

إيمان عصام خلف كامل

قسم الدراسات الأدبية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، المنيا، مصر.

البريد الإكترونى :Eman.essam@mu.edu.eg

الملخص :

هذا البحث يتناول فكرة الانكسار عند الشعراء العشاق مبينا لأسبابه ودوافعه، ومدى ارتباط ذلك بأغراض وكيف انعكس هذا الأمر على الشاعر من خلال صوره وأخيلته التي سنتوقف عندها عبر هذه الملامح :الملمح الأول: سيتوقف عند مفهوم الانكسار لغةً واصطلاحًا.

الملمح الثاني : يتكلم عن القوالب الحجاجية للرفض الأسرى.

الملمح الثالث : يوضح الانكسار والبعد عن المحبوبة.

الملمح الرابع : الأبعاد الحجاجية لانكسار العين .

ويهدف البحث إلى إظهار بعض القيود الاجتماعية وأثرها على الشاعر وحياته، فقد وقفت القيود الاجتماعية عائقا أمام الشاعر، وكانت سببا رئيسا في فشل ارتباطه بالمحبوبة، مما أدى إلى حالة من الانكسار النفسي نتج عنها إحساسه بالغربة داخل المجتمع، فجاء السعي إلى الرحيل ليقدم لنا تجربة من تجارب القهر النفسي والظلم المجتمعي، نتج عنه إحساسٌ بالوعة والفقد والحرمان والحنين إلى الذكريات والبكاء على الأماكن المهجورة، وتأمل للمستقبل الذى لا يأتي بجديد. ويدور البحث في فلك المنهج الحجاجي، ذلك المنهج المرتبط بالقواعد المنطقية والوسائل الإقناعية التي تجسد القضايا الإنسانية في سُلم منطقي يعتمد على مقدمات ويصل إلى نتائج، فإنه يعتمد

على الدفاع بالنفس بالكلمة ويستخدم الحجج التي تبين الأحقية والبطلان أو القبول والرفض أو المؤيد والمعارض. وقد توصل البحث إلى النتيجة المرجوة المتمثلة في الوقوف على عتبات الانكسار ودوافعه وأسبابه من فشلٍ عاطفي ، وقيد أُسَري ، ورفضٍ مجتمعٍ ، وهى محاولة لدراسة شعرنا القديم عبر منهج فكرى ونقدى حديث ، فقد آن الأوان إلى العودة إلى تراثنا للوقوف على حقائق فنية لم يدرسها أو يتناولها الدرس الأدبي من قبل .

الكلمات المفتاحية: الانكسار، الفشل، البكاء، الظلم، القهر، الحجاج، أنماطه، الذات، ريا، المكان .

Brokenness in *Al-Summah bin Abdullah Al-Qushayri:* "Argumentative study"

Eman Essam Khalaf Kamel

Department of literary studies, Faculty of Dar Al-Uloom, Minia University.

Email: Eman.essam@mu.edu.eg

Abstract:

The present study addresses the concept of brokenness in the poetry of Romantic poets discussing its reasons, motivations, how this is associated with aims of poetry, and how this is reflected on the poet in terms of his imagery and fantasies that are discussed through the following sections: Section 1 discusses the concept of brokenness linguistically and terminologically. Section 2 addresses the argumentative patterns of family refusal. Section 3 sheds light on brokenness and being distant from the poet's beloved. Section 4: The argumentative dimensions of one's submission.

The study aims to shed light on some social constraints and their impact on the poet and his life; these social restrictions have been obstacles to the poet and have been a main reason for ending his relationship with his beloved. Consequently, this led him to psychological brokenness which in return reinforced the poet's feeling of alienation within his society. As a result, the poet decides to leave his society and shares with us the experience of psychological repression and social injustice which result in his feeling of lovesickness, loss, deprivation, nostalgia for memories, crying over the deserted places, and meditation about the future that does not bring anything new.

The study adopts the argumentative approach. This approach is connected to logic rules and persuasive means which embodies humanitarian issues, in a systematic analysis that starts with evidences and ends with results. It depends on defending one-self through the use of verbal words and logical arguments that shows validity or invalidity, acceptance or refusal, and agreement or disagreement. The study arrives at its intended objective represented in defining brokenness, its motivations, and its reasons including the romantic relationship failure, family constraints, and social refusal. It is an attempt to study our old Arabic poetry using a modern, critical and logical approach. It is time to get back to our heritage to study artistic aspects that have never been tackled by the literary studies before.

Keywords: Bokenness- failure- crying- injustice- repression -arguments – patterns of arguments - (ones-self) - Raya- place.

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة تحليل النتاج الإبداعي لأحد شعراء الدولة الأموية من خلال رَصْد جوانب الانكسار في حياته.

وفى البداية أود أن أشير إلى أن صاحب الأغاني أورد ما يفيد أنه شاعر إسلامي بدوي مقل من شعراء الدولة الأموية. [١]

وكان ذلك دافعا لي للوقوف على مواضع الانكسار وتتبع مراحله عبر الأطر الحجاجية كاشفة عن الوسائل التي يحاول من خلالها البرهنة على انكساره.

ومن ثم تقوم الدراسة على تحليل الملامح الآتية:

الملمح الأول: مدخل لمفهوم الحجاج بين اللغة والاصطلاح.

الملمح الثاني: تحليل مفهوم الانكسار لغةً واصطلاحًا.

الملمح الثالث: يرصد القوالب الحجاجية للرفض الأسرى.

---

(١) للمزيد من التفصيل انظر إلى:

- الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – تحقيق التراث – ج٦ – ص٩٢١ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٩٨٢م.
- دراسات في شعر العصر الأموي – د. عبد المطلب محمود – ط١ – ص٤٠ – دار الكتب والوثائق – بغداد – العراق – ٢٠٠٨ م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣١هـ – ١٠٩٢ هـ) – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – ج٣ – ص ٦٢ – ٦٣ – مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر – ١٩٨٦م .
- سمط الآلي في شرح أمالي القالي – أبو عبيد البكري – تحقيق عبد العزيز الميمني – م١ – ص٤٦٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٩٣٥م.

الملمح الرابع: يوضح الانكسار والبعد عن المحبوبة.

الملمح الخامس: الأبعاد الحجاجية لانكسار الذات.

تراثنا الشعرى ذو خصوصية متميزة عن تراث الأمم الأخرى، فهو وثيقة تاريخية وصورة مجسدة لحياة القدامى العرب.

وقراءة هذا التراث قراءة واعية وفاحصة تكشف لنا عن بيان ومغزى قيمته، فكلما قرأناه تظهر لنا مجموعة من الأبعاد الجديدة غير المسبوقة ونتمكن عبر أطرها من تأويل النص، والوقوف على عتبات جديدة لم يتناولها الدرس النقدي من قبل. ولعل هذا ما دعا أستاذنا الأستاذ الدكتور فوزي عيسى إلى القول بأن" النص لا يكتنز بصوره الاستعارية أو تشبيهاته ومع ذلك فهو يستمد جماله وتأثيره من عفويته وتلقائيته، ويلفتنا باعتباره نص "موقف " يعكس تجربه نفسية وشعورية عميقة" (١)

ومن ثم فإن الصمة من خلال تتبع المسار التاريخي لنشأته، والوقوف على الصورة المجتمعية لبيئته، أظهرت لنا أنه يعيش لحظة انكسار مستمرة عبر مؤثرات نفسية خارجية وداخلية، أما الخارجية فناتجة عن الاضطهاد المجتمعي، والداخلية ناتجة عن ظلم أسرى ورفض تام من قبل المحبوبة، فَتولّد لديه إحساس بالقهر والاضطهاد والظلم.

وانعكس ذلك على نفسيته، فجاءت أبياته الشعرية مجسدة لواقعه المضطرب، وما يحمله من آلام أدت إلى إحساسه بالانكسار المستمر، واليأس المؤدى إلى فقد التوازن النفسي والبدني على حد سواء وكل ذلك

(١) النص الشعرى وآليات القراءة – ا.د. فوزي عيسى – ط١ – ص ١٩٦ – منشأة المعارف – الاسكندرية – مصر – د.ت.

جسدته صوره وأخيلته وما رسمه من فنون تصويرية عبر البراهين المرتبطة بالقوالب الحجاجية التي تبرهن لنا بشكل إقناعي متواتر حجم معاناته، وتظهر لنا سوء ما تعرض له من ظلم مجتمعي وإهانة قبلية من الأهل والقبيلة على حد سواء.

مفهوم الحجاج بين اللغة والاصطلاح:

المعنى اللغوي والفلسفي للحجاج :

بالعودة إلى معجماتنا العربية للوقوف على مفهوم الحجاج اللغوي سنجد أنه ورد على النحو التالي: تأتى مادة " حجج " بوصفها بنية أساسية يُشْتَقُّ من خلالها عدة اشتقاقات أخرى (كالحج – الحجيج – الحُجَّة – المِحْجَاج – التَّحاج).

وقد ورد ذلك عبر معجماتنا اللغوية، كما أن المعجمات العربية أفردت عبر صفحاتها مجموعة من المسميات القريبة من مفهوم ومصطلحات الحجاج (كالبرهان) و(الاستدلال).

فقد أورد الرازي [١] في مختاره: " حجج " الحج في الأصل القصد، وفي العرف قَصْدُ مَكّة للنُّسُك،... والحجة " البرهان " (وحَاجَّه فحجَّهُ) من باب ردُّ أي غلبة بالحجة، و(المحجاج) بكسر الميم أي جَدِل، و(التَّحاج) التخاصم، وزاد صاحب القاموس المحيط [٢] بعض الأشياء اليسيرة كقوله: الحجُّ، القَصْدُ، والكَفُّ، والقُدُوم، والغلبة بالحُجَّة.. والتَّحاج: التخاصُمْ.

---

(١) مختار الصحاح – الرازي – عني بترتيبه محمود خاطر بك – راجعه وحققه لجنة من علماء اللغة العربية – ص١٢٢ : ١٢٤ – دار الفكر العربي – بيروت – لبنان – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٢) القاموس المحيط (على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة – تصنيف وإعداد الطاهر أحمد الزاوي – ط٣ – المجلد الأول – ص ٥٩١ : ٥٩٢ – دار الفكر – بيروت – لبنان.

وذهب ابن منظور[١] إلى قبيل من هذا: فالحجُّ: القصد، وحاجَجْتهُ أحاجُّه حِجَاجًا ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُهُ أي غَلَبْتُه بالحَجَجْ التي أدْليتُ بها، والحُجَّةُ: البرهان، ورجل محْجَاج أي جَدِلٌ، والتَّحاجُّ: التخاصم، واحْتَجَّ بالشَّيء: اتَّخَذَ حُجَّة، والحجَّةُ: الدليل والبرهان، والحَجْحَجَة: النُّكُوص، والتوقف عن الشيء والارتداع، والكف عن الشيء.

وقد تشابهت المعاني عند الرازي والفيروز آبادي وابن منظور من حيث: إن الحجة هي البرهان والدليل، وأنها وسيلة من وسائل الاستدلال، وتؤدي في النهاية إلى غلبة من يتمسك بها شريطة توافر الأدلة لها..

بيد أن "صاحب الفروق" لم يمض على هذا النهج فقدم رؤيته موضَّحًا معنى الحجة، والدلالة، والبرهان، وفي ذلك في قوله:" الحجة هي: الاستقامة في النظر والمضيُّ فيه على سنن مستقيم من ردِّ الفرع إلى الأصل، مأخوذة من الحُجَّةِ" وهى الطريق المستقيم وهذا هو فعله المستدلُّ وليس من الدلالة في شيء..

وتأثير الحجة في النفس كتأثير البرهان فيها، وإنما تنفصل الحجة من البرهان، لأن الحجة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد، حجَّ يَحُجُّ، إذا استقام في قصده، البرهانُ لا يُعرفُ له اشتقاق وينبغي أن يكون لغة مفردة"[٢] ومن خلال ما طرحه " أبو هلال" نجد أنه يؤكد على مدى العلاقة بين

---

(١) لسان العرب – ابن منظور – الطبقة السادسة – المجلد الرابع – ص ٣٧ : ٣٩ – دار صادر – بيروت – لبنان – سنة ٢٠٠٨م.

(٢) الفروق في اللغة – لأبى هلال العسكري – حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه جمال عبد الغنى مدغمش – ط١ – ص٩٧ – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – سنة ١٤٢٢هـ – سنة ٢٠٠٢م.

الحجة والبرهان فهما وجهان لعملة واحدة لما لهما من تأثير على النفس بقدر متساوٍ، وأما الدلالة فهي المعنى الناتج من هذه المحصلة ..

المعنى الفلسفي :

ورد في العجم الفلسفي لمراد وهبه أن " الحجة: هي ما يراد به إثبات أمر أو نقضه، ومن هذا الوجه تكون الحجة مرادفة للاستدلال، فيقال: إن الحجة هي الاستدلال باطنًا وظاهرًا، ومن ثم فكل ما يقال عن الاستدلال يقال عن الحجة، يقول الغزالي، والحجة هي ثلاثة أقسام قياس واستقراء وتمثيل ... ويقول ابن سينا: جرت العادة أن يُسمى الشيء الموصل إلى التصديق محجَّة، فمنه قياس، ومنه استقراء ونحوهما..." [١]

على أيه حالة إن " الحجج تَعْني الطُّرُق التي يسلكها صاحب الحجة لإقناع " المتلقي" تختلف من فرد لآخر حسب الطرق والآليات التي تستعمل في التحاج، وكذا الأساليب اللغوية الإقناعية الموظفة في الخطاب"[٢]

الحجاج اصطلاحًا:

إن الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة " وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخري، يتمثل

([١]) المعجم الفلسفي – مراد وهبه – ص٢٦٦ – دار قباء الحديثة – مصر – سنة ٢٠٠٧م.

([٢]) الاستدلال الحجاجي التداولي وأليات اشتغاله – د.رضوان الرقبي – ص٧١بتصرف – مجلة عالم الفكر – العدد٢ – المجلد ٤٠ – أكتوبر – ديسمبر – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – سنة ٢٠١١م.

الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج فيها. إن كون اللغة لها وظيفة احتجاجية يعنى أن التسلسلات الحجاجية محددة ، لا بواسطة الوقائع (Les Faits) المعبر عنها داخل الأقوام فقط، ولكنها محددة أيضًا، وأساسًا، بواسطة بنية هذه الأقوال نفسها، وبواسطة المواد اللغوية التي تم توظيفها وتشغيلها"[١]

والدراسات التي تناولت مفهوم الحجاج وتطوره التاريخي تكاد تتشابه جميعها في سرد المصطلح من حيث نشأته وتطوره، اللهم إلا الاختلاف الهين بين الدراسات البلاغية واللغوية .. كما أن محاولة البحث عن الجذر التاريخي سيوقفنا على أمر مهم، خاصة وأن الخطابة هي البوتقة الأولي التي انصهر منها هذا المصطلح.

وقد ابتعدت عن التعرض للمفهوم التاريخي للمصطلح؛ لأن ذلك سيأخذ مساحة زمنية طويلة تبدأ من الفلسفة اليونانية في بداياتها، وحتى تاريخنا المعاصر بكل توجهاته وتحولاته، مما سيجعل الأمر غير لائق؛ لتحول البحث إلى عرض تاريخي طويل، ويمكن الإشارة إلي أحد المؤلفات الحديثة [٢]، للوقوف على هذا الأمر، وتتبع تطور المصطلح شكلا ومضمونا..

---

(١) الحجاج مفهومه ومجالاته "دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية الجديدة " – إشراف د. حافظ إسماعيلي علوي = إربد – الأردن – سنة ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٢) للمزيد حول المصطلح وتتبعه انظر:-

الحجاج في الشعر العربي – د. عصام خلف كامل – ط١ – المقدمة ص١٢ – دار سندباد للنشر والإعلام – القاهرة – ٢٠١٥م.

الانكسار لغة واصطلاحًا:

بالعودة إلى المعاجم اللغوية، وعلى الأخص المعاصرة منها نجد أن الفعل :" انكسر، ينكسر، انكسارًا، وانكسر الزجاج، تحطم وتهشم، وانكسار القلب: أصابته صدمة، ومنها قلب كسير: متألم، وانكسرت شوكته: هُزم وذُل وهان أمره. (١)

والانكسار حالة نفسية تصيب الإنسان في مرحلة متقدمة من الاكتئاب الذي ينتج بدوره عن الحزن ثم اليأس والاكتئاب وفى النهاية تسيطر على الإنسان حالة من الاستسلام والانكسار. (٢)

إن تجربة الصمة بكل ما تحمله من مرارة في النفس وغصة في الحلق، أفرزت لنا انكسارا ذاتيا فجاء شعره محاكيا لما تعرض له من حزن وهم وانتهى بألم ويأس واغتراب.

وقد جسد أيما تجسيد عبر أشعاره، والمتتبع لظاهرة الانكسار ومفهومه، يجد أنه ناتج عن حالة من الفقد، ذلك الفقد المرتبط بأمنيات لم تتحقق، فأوصله الأمر إلى الشعور بالوحدة والغربة النفسية في هذا الوجود.

لذا يأتي الحجاج بوصفه وسيلةً إقناعيةً يوضح عبر نقاطه أنماط الاضطراب في بنيته الداخلية وانكسار مشاعره عبر شعور ينتابه، ويتمثل في قلق دائم وخوف لا ينتهي.

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة – أحمد مختار عمر – ج٣ – ص ١٩٣٢ – عالم الكتب – القاهرة – مصر – ٢٠٠٨م.

(٢) انظر موسوعة علم النفس – الأكاديمية العربية البريطانية لعلم النفس، www.baha.co.uk

لذا شكّل الحجاج ووسائله نمطا مغيرا لما ألفناه عند غيره من الشعراء، وتمثل ذلك في حجاج رافض لكل ما حوله، ذلك الحجاج القائم على حركية الأفعال التي تحمل أوجها متعانقة ومتشابكة، كالبكاء المرتبط بالتمني الناتج عن الشكوى والعتاب.

إن هذه البنية المضطربة ما هي إلا انعكاس لصدى نفسي عن إحساس بالمرارة والصدمة من الفشل والانكسار في عدم تحقيق الحلم أو الأمنية..

ولا غرو إذا ما وجدنا هذه الظاهرة مستمرة معه في أغلب شعره وعلى مدار حياته.

ومن أشهر أشعار الصمة " العينية " وقد نقل الأصفهاني عن إبراهيم الأزدي قوله " لو حلف حالفُ أن أحسن أبيات قيلت في الجاهلية والإسلام في الغزل قول الصّمّة القشيري ما حنث ". (١)

أسباب الانكسار في شعر الصّمّة:

من المتعارف عليه أن أمور الإقناع الحجاجي لابد أن ترتبط بمقدمات تؤدى إلى نتائج نتوقف أمامها، والصمة عبر ديوانه ينقلنا وفق تجاربه من زاوية حجاجية إلى أخرى، وأولى هذه المسائل ما يتعلق بقضية مجتمعية نجدها عند كافة الشعراء على حد سواء، ألا وهي قضية الارتباط بالمحبوبة ورفض المجتمع لهذا النوع من الارتباط العاطفي، وهي قضية طرحت عند كثير من الشعراء العشاق، ونتج عنها ما يدعو إلى القلق

(١) الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – ج٦ – ص ٧.

والاضطراب والإحساس بالانكسار والمهانة، وهو ما يوضحه ذلك العنوان التالي:

١ – القوالب الحجاجية للرفض الأسرى:

تجمع الروايات على أن الصّمّة أحب ابنة عم له يُقَال لها (ريا) وتقدم لخطبتها من عمه، فطلب عمه منه أن يأتيه بخمسين ناقة فلما جاء لأبيه أعطاه تسعًا واربعين ناقة ورفض عمه وقال والله لا أقْبَلُها إلا كُلها فغضب الصّمّة من أبيه وعمه ورحل إلى الشام. [١]

وفى رواية أخرى بأن أباه رفض أن يدفع له المهر فذهب إلى قومه فأعطوه، فأتى عَمَّه بالإبل، فقال لا أقبلها إلا من مال أبيك، فرفض أبوه، فغضب الصّمة ورحل. [٢]

إن الأدوات الحجاجية المستخدمة ها هنا تجسد حالة من حالات الانكسار المؤدى إلى الاغتراب والبعد عن المكان، فأمام اضطهاد الأب ورفضه، وتعنت العم وقسوته تأتى فكرة الرحيل تجسيدا لحالة التخبط والشعور بالانكسار، وما نتج عنه من حزن وألم سيطر عليه، فأنشد لنا هذه الأبيات:[٣]

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – ج ٣ – ص ٦٢: ٦٣ بتصرف.

(٢) سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي – م١ – ص ٤٦٢ بتصرف.

(٣) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – جمعه وحققه وشرحه وصنع فهارسه – د. خالد عبد الرؤوف الجبر – ط١ – ص٩٤: ٩٥ – دار المناهج – عمان – الأردن – ٢٠٠٣ م.

أقـولُ لصـاحبي والعِـيسُ[١] تهـوى بِنـا بَـيْنَ المُنِيفَـةِ والضّـمارِ[٢]

تَـمَتَّـع مِـن شَـميم عَـرار[٣] نَجـدٍ فمـا بَـعْـدَ العَشِـيَّةِ مِـنْ عَـرار

ألا يـــا حبَّـــذا نَفَحـــات نَـــجْدٍ وريّـــا [٤]رَوْضِـةِ بَعْـدَ القِطـار

وأهْلُـــك، إذ يَحُـــلُّ الحَـــيُّ نَجْـدًا وأنـت علـى زمـانِك غَيْـرُ زارِ

ما بين تمنى الشاعر جاء الوجه المقابل للرفض الأسرى في قوالب حجاجية يمكن تمثيلها بالشكل التالى :

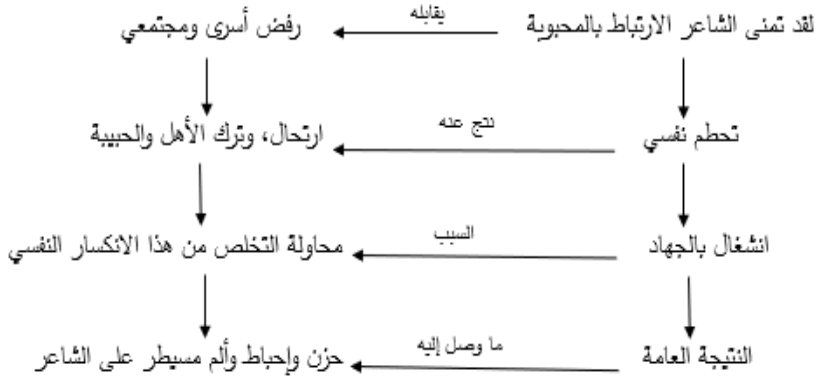

إن الشاعر يعيش لحظات من الأسي والحرمان أفرز لنا كمًّا من الحزن المسيطر على النفس والمفعم بالبكاء على الأطلال، وقد اعتبر

(١) العيس: الإبل التي يضرب لونها إلى الصفرة.

(٢) المُنِيفَةِ والضّمارِ: موضعان بين نجد واليمامة.

(٣) عَرارَ: نبات طيّبُ الرائحة، وهو النرجس البرّيُّ، والشَميم: الشَّم.

(٤) وريا: الريح الطيبة.

المرحوم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف أن مفهوم "بكاء الأطلال والديار ما هي إلا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نما معهم على مر الزمن واختلاف المنازل والأمكنة"[١]

ومن علامات الانكسار هو ذلك المشهد المتجسد في الرحيل ومدى انعكاسه النفسي على الشاعر فلحظة الوادع هي أصعب لحظات الانكسار النفسي لأن هذا الرحيل يستتبعه ذكريات مضت تتعلق بالمكان ومن فيه، يقول الشاعر مجسدا مشهد الرحيل على النحو التالي:[٢]

خليلي عوجا مِنكُم اليَومَ أودعا ... نحيّ رسوما بالقُبَيبَةِ بلقعا

أَرَبَّت بِها الأَرواحُ حَتّى تَنَسَّفَت ... مَعارِفُها إِلّا الصَفيحَ المُوْضَّعا

بَكَت عَينُك اليُسرى فَلَمّا زَجَرتَها ... عَنِ الجَهلِ بَعدَ الحِلمِ أَسبَلَتا مَعا

وَلَم أَرَ مِثلَ العامِرِيَّةِ قَبلَها ... وَلا بَعدَها يَومَ ارتَحَلنا مُوَدِّعا

قِفا وَدِّعا نَجدا وَمَن حَلَّ بِالحِمى ... وَقُلِّ لِنَجدٍ عِندَنا أَن يُوَدَّعا

بِنَفسيَ تِلكَ الأَرضُ ما أَطيَبَ الرُبا ... وَما أَحسَنَ المُصطافَ وَالمُتَرَبَّعا

وَأَذكُرُ أَيّامَ الحِمى ثُمَّ أَنثَني ... عَلى كَبدي مِن خَشيَةٍ أَن تَصَدَّعا

---

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر – د. شوقي ضيف – ط٩ – ص ٢٦٣ – دار المعارف – القاهرة – مصر – ٢٠٠٣م.

(٢) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٠٦: ١٠٧.

وفى موضع آخر يجسد الصمة مشاعره المنكسرة المشتتة وما نتج عنها من شوق وحنين وإحساس بالانتماء للمكان قبل الرحيل، نلمح ذلك في قوله:[١]

أقــول لعــياشٍ صحبنــا وجابــرٍ وقد حال دونـي هضب عارمـة الفرد

قفا فانظرا نحو الحمى اليوم نظرةً فــإن غداة اليوم من عهده العهد

فــلمّا رأيْنــا قُلَّــة البِشْر أعْرَضَتْ لنـــا وجِبــالُ الــحزْنِ غيَّبَهـا البُعْـد

وأعْــرضَ رَكْــنٌ منْ سُـواجٍ كـأنَّــهُ لعيْنيـكَ فــي آل الضُــحى فــرسٌ وَرْدُ

أصــاب جــهول القــوم تَتَئيمَ ما به فــحَنَّ ولــمْ يَمْــلكْهُ ذو القُـوَّةِ الجلْـدُ

لذا فقد تطلب الأمر أن أفرد مساحة للأبيات التي تتعلق بالمكان والرحيل عنه، تلك الأبيات المفعمة بظاهرة الحزن والانكسار النفسي، فالأبيات تُظْهِر نمطا حجاجيا متمثلا في حبه لدياره وديار الأحبة، فينظر نحو الديار بذات منكسرة ويبرهن على حبه من خلال مشاعره المحترقة شوقا وحنينا لدياره، ولم يكتف بذلك، بل طلب من المسافرين تبليغ السلام إلى نجد وأهله.

ونجح الشاعر في إظهار الصراع بين قيمة المكان وذاته المنكسرة وبيّن ذلك في قالب حجاجي فمن جهة المكان ذكرياته المسيطرة على قلبه وعقله فلا يستطيع الابتعاد عنه ومن جهة المشاعر نجد نفسه أو ذاته المنكسرة تأبى النسيان فالأنفة وعزة النفس تمنعه من الرجوع.

---

(١) المصدر السابق – ص ٨٧.

يقول الصمة: [1]

خَلِيلَيَّ قُوما أشْرِفا القَصْر فأنظُرا ... بِأَعْيانِكُم هَلْ تُؤنِسانِ لنا نَجْدا

وَإنِّي لأَخْشى إنْ عَلَوْنا عُلُوَّه ... فَنُشْرِفَ أنْ يَزْدادَ -ويحَكُما- بُعْدا

نَظَرْتُ وأصْحابي بِذَرْوَةَ نَظْرَةً ... فَلَوْ لَمْ تَفِضْ عَيْناي أَبصَرتا نَجْدا

إذا مرَّ رَكْبٌ مُصْعِدينَ فَلَيْتَني ... مَعَ الرّائحينَ المُصْعِدينَ لَهَمْ عَبْدا

أيا رفْقَةً مِنْ أل بُصْرى تَحَمَّلُوا ... رِسالَتنا لُقِّيتِ مِنْ رُفْقَةٍ رُشْدا

وقوله أيضا: [2]

خليليَّ إنِّي واقفٌ فمسلِّمٌ ... على النِّير فارْتاحا قليلاً فسلِّما

فإنِّي أحبُّ النِّيرَ والبرقَ الَّتي ... بها النِّيرُ حبّاً خالطَ اللَّحمَ والدّما

فلو زال هضبُ النِّير عن سكَناتهِ ... ليمَّمتُ من وجدٍ به حيثُ يمَّما

ولو كلَّمتْ صُمُّ الجِبال بموطنٍ ... صديقاً لحيَّانا إذنْ وتكلّما

نحن هنا أمام لحظة صدق فارقة مع النفس تبرهن على قيمة المكان وأهميته، ومدى الارتباط النفسي به، فجاءت أبياته مفعمة بجوانب حجاجية يوضح من خلالها قوة ارتباطه بالمكان، وعلاقته به كعلاقة يخالطها الدم واللحم، وكل ذلك يُعَد إسقاطا على الذكريات المنكسرة بين الشاعر وموطنه

([1]) نفسه – ص ٧٩.

([2]) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٢٥.

فهو أمر لا يمكن نسيانه ويعد بالنسبة إليه كالهواء الذي يحيا به الإنسان، وبدونه تتوقف عجلة الحياة، وأصبحت علاقة الرحيل عن المكان تعادل فكرة الموت وهو ما يحاول إظهاره عبر قوالبه التصويرية في الأبيات، ويمكن تجسيده في الشكل التالي:

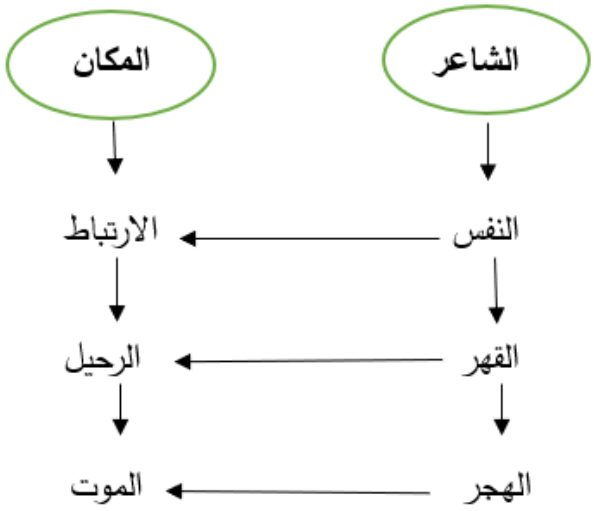

ويقول أيضا : [١]

أَكَـرِّرُ طَـرْفِـي نَـحْوَ نَـجْدٍ وَإِنَّـنَـي إلَيهَ، وإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الطَّرفُ، أَنْظُرُ

حَـنيـنًـا إلـى أَرْضٍ كَـأَنَّ ثُـرَابَـهـا إذا مُـطِرَتْ عُـودٌ وُمِـسْكٌ وَعَنْبَرُ

بِـــلادٌ كَـأَنَّ الأُقْـحُـوانَ بِـرَوْضَةٍ وَنَـــوْرَ الأَقاحِي وَشْيُ بُرْدٍ مُحَبَّرُ

---

(١) نفسه – ص ١٠٢.

أحِنُّ إلى أرْضِ الحِجازَ وَحاجَتْي خِيامٌ بِنَجْدٍ دُوْنَها الـطَّرْفُ يَقْصُـرُ

وَمـا نَظَرِي مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ بِنافِعِي أَجَـلْ لا ، وَلَـكِنِّي إِلَى ذاك أَنْظُرُ

أفِـــيْ كُـلِّ يَـوْمٍ نَـظْـرَةٌ ثُـمَّ عَبْرَةٌ لِـعْيـنِـكَ مَـجْـرَى مـائِـهـا يَتَـحَـدَّرُ

مَتَى يَسْـتَرِيحُ القَلْبُ؟ إِمّا مُجاوِرٌ بِـحَـــــرْبٍ ، وَإِمّـا نـــازِحٌ يَتَـذَكَّرُ

تحمل الأبيات برهانا قاطعا على مدى الوجد والشوق المكاني فيقدم لنا الأمثلة التي تدل على ذلك في نمط حجاجي يتمثل في إدامة النظر وإطالته رغم بعد المكان فهو حنين لا ينتهى إلى الأرض كاملة متمثلا في الأرض الحجازية ثم قصر الأمر على بادية نجد ، وهو عندما يتحدث عن المكان فلا عودة للمكان إنما هو استفهام استنكاري يجسد الذكرى محاولا البرهنة على قيمة المكان وجماله فمكان الشاعر لا ينبت إلا مسكا وعنبرا إذا ما مر عليه المطر ومن ثم استخدم صيغة " **تمتع من شميم عرار نجد** " في قصيدة سابقة، فالشاعر علاقته بالمكان علاقة نفسية تتجلي فيها قيمة المكان وجماله الذى تحول فيما بعد بسبب اغترابه إلى وسيلة للقهر والمشقة نتيجة البعد عنه وعن الأهل .

وتتجلى مظاهر الانكسار الذاتي في حالة الفقد التي ترتب عليها ضياع الأهل والحبيبة والوطن، مما قد تسبب في ضياع الآمال والأحلام وأصبح الرحيل علامة من علامات القهر والإحساس بانكسار الذات نلمح ذلك في: [1]

لعَمْري لقد نادى مُنادي فِراقِنا بِتَشْتيتِنا في كُلِّ وادٍ فأَسْمَعا

(1) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١١٣.

بكل بـــلادٍ أم بكـلِّ مـظنّــةٍ أخو أملٍ منا يحاول مطمعا

كأنّــا خُلِقْنــا للنَّوى وكــأنّما حَرامٌ على الأَيّامِ أن نَتَجَمَّعا

لقد انتهى به الانكسار إلى الضعف والإرهاق النفسي فبدا عاجزا عن تغيير ما يريد فوجد نفسه مدفوعا للرحيل ومشمولا بالفراق عن الأهل والحبيبة، وهذا الأمر يجسد بطبيعة الحال دور المجتمع والأسرة في تحطيم الأحلام، يقول الشاعر:[١]

أحنُّ إلــى نــجد وإنــي ليـائــسٌ طوال الليالي من رجوع إلى نجد

فإني لا ليلى [٢] ولا نجد فاعترف بهجر إلى يوم القيامة والـوعد

هذه الأبيات تشكل نمطا حجاجيا لمفهوم الرفض لقد انكسرت النفس نتيجة الشوق للمكان والحنين إلى ديار المحبوبة بالمجاهدة من أجل العودة إلا أن شاعرنا لم يجد وسيلة إلى تعزية النفس وطلب الصبر حيث إن الأحداث في مجملها جعلته ضعيفا وغير قادر على مواجهة هذا القهر، وفعله لشيء لا يريده فأتت النتيجة الحتمية لكل ذلك " **انكسار الأمل والروح وغربة الذات** "، انظر هذا النموذج الذي يعزى فيه نفسه: [٣]

تَعَزَّ بِصَبرٍ، لا وَجَدّكَ لا تَرى سَنامَ الحِمَى أُخْرى اللـيالي الغَوابِرِ

كَأَنَّ فُؤادي مِنْ تَذَكُّرِهِ الحِمَى وأَهْلَ الحِمَى، يَهْفُو بِهِ ريشُ طائِرِ

---

(١) نفسه – ص ٨٣.

(٢) نفسه – ص ٨٣: (ليلى) هنا تحريف (لريّا) وهو ما ذكره د. خالد الجبر أو هو نتيجة استبدال (ليلى) ب (ريّا) عند أحد الرواة . ومما يؤكد هذا أن الصمة هَجَرَ نَجْدًا بعد زواج ريّا، ولم يعد إليه طيلة أيامه حتى وافقته منيَّتُه.

(٣) نفسه – ص٩٨.

الشاعر في الأبيات السابقة يعزى نفسه بالصبر في قوله **(تَعَزَّ بِصَبرٍ)** فهو يتمسك بوسيلة الصبر وهي وسيلة العاجز الذي يقف مكتوف الأيدي أمام الأحداث التي تمر به وأمام الليالي القادمة المتبقية من عمره بذكره **(الليالي الغَوابِرِ)** فهو هنا يومئ إلى أنه لن يراها طوال الدهر فيما تبقى له من أيام العمر.

وفى البيت الثاني فإنه عندما يتذكر الحمى وأهله، إنما يقصد هنا **(ريّا)** لذا فإن قلبه يتسارع بالنبض وشبه ذلك **بقوله (يَهْفُو بِهِ ريشُ طائِرِ)** أي أن قلبه مثل جناحي الطير عندما يحلق بهما.

من خلال البيتين السابقين تتجلى الأطر الحجاجية عند الشاعر وظهر مدى انكساره، فكيف يمكن لقلب أن يحمل كل هذا الحب ويقرر الارتحال ويذهب بعيدا؟! فتتولّد مشاعر اليأس والخذلان وخيبة الأمل، ويمكن جمع كل ذلك عبر جمل تجسد مفهوم الانكسار لديه في تسلسل منطقي كالتالي:

المجتمع + الأهل + الحبيبة ← ضد ← الشاعر.

الشاعر + قرار الرفض والتعنت ← يولّد ← انكسار الذات.

انكسار الذات + إعلاء الكبرياء ← الشاعر ← الارتحال منكسرا

إن قرار الرحيل عن نجد وأهلها، وعن المحبوبة وديارها، خلَّف وراءه مشاعر منكسرة منقسمة ما بين بلده التي نشأ وترعرع فيها وبين ذاته بسبب ما تعرض له من قسوة وغدر وظلم من أهله، فلم يكن حب " ريَّا " فقط المسيطر عليه وعلى كيانه، ومن ثَّم لعب الحجاج دورا لهما في بيان حب الشاعر لنفسه وحبه لبلده أيضا والحنين لهما في كل لحظة فجاءت أبياته

موضحة بأن موطنه هو الحب الفطري الذي يحاول التشبث به " باعتباره أخر ما بقي من مظاهر ملموسة كانت شاهدا على مرحلة من حياة الواصف"[١] فيقول: [٢]

إلى الله أشْكو نِيَّةً يَوْمَ قَرْقَرَي مُفَرَّقَةَ الأهوَاءِ شَتّى شُعُوبُهَا
ويَوْمًا بِحِصَنِ الباهِليّ ظَلِلْتُهُ أكَفْكِفُ عَبْراتٍ تَفيضُ غُرُوبُها
ويَوْمًا على تِبْراكِ أيْقَنتُ بالَّذي تُحاذِرُه نَفسٌ فَشُبَّ شُبُوبُهَا
ويَوْمًا بِقاعِ الأخْرَبيْنِ جَري لَنا بِنَحسٍ ظِبَاءُ الآخْربيْنِ وذِيبُهَا
ويَوْمًا عَلَى ماءِ الهُديَّةِ قَالَ لي صِحابِي: طِبْ نفسًا، وكيفَ أطيبُها
ويَوْمًا بمَطْلُوبٍ وَجَدْتُ حَرَارَةً طَويلاً بألواذِ الفُؤادِ نُشوبُها
ويَوْمًا عَلَى ماءِ المُحَلّقِ طَيْرُهُ أُحَدِّثُ نفساً صَبّةً: ما يُكِيبُهَا؟
ويَوْمًا بقُرْنٍ؛ قَرْنِ نخْلَةَ، راجَعَتْ بِنَفْسِكَ زَفْرَاتٍ، بنَجْدٍ طَبِيبُهَا
ويَوْمًا لَدَى البيتِ الحرامِ تَجَلَّدَتْ لك النَّفْسُ إكْراهًا عَلى ما يُرِيبُهَا
فَيا أَهْلَ نجدٍ، لا شَقِيتم ولُقّيتْ ركابُكُم رُشْدًا، وَحُلَّتْ ذُنُوبُهَا
إذا ما لَقِيتُم أَهْلَ نَجْدٍ وعُرِّيت قَلائِصُ أَدّتكُمْ وَقَدْ طَال دُوبُهَا
فَمِنّى عَلَيهِمْ فَاقْرَؤُنَّ تَحِيَّةً يُخَصُّ بِها شُبّانُ قَوْمي وَشِيبُهَا
تَحِيّةَ مُشْتَاقٍ إلى أن يراهُم وَرَجْع أماثيلٍ يُفَدَّى عَرِيبُهَا

---

(١) الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم – محمد الناصر العجيمي – ط١ – ص٣٨٢.

(٢) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٦١.

يحاول الصمة البرهنة من خلال الأبيات السابقة على ارتباطه وعشقه لنجد، فجاءت ألفاظه معبرة عن حنينه لتلك الأيام المشتملة على صباه وملاعبها، ووصف مواضعها ووديانها وهضابها ورمالها فجاءت متمثلة في (إلى الله أشكو – مفرقة الأهواء – يوما ما بحصن الباهليّ – يوما على تبراك – يوما بقاع الأخربين – يوما على ماء الهدية – ويوما بقرن – قرن نخلة – أهل نجد – إذا أتتنا الريح – تحية مشتاق)، وكل ما سبق هو وصف للمكان والبلاد المجاورة التي مرّ عليها أثناء رحلته مودعًا بلده .

والواضح البَيِّنْ أن انكسار الشاعر وما يتخلله من مشاعر مسلوبة منه حاملا فيها ذكريات حياته في بلده، وكل موضع فيها يجسد جزءا من وجوده – فمن منّا يستطيع التخلي عن بلده مهاجرا لها وتاركا وراءه كل أحلامه وآماله وحب أهله ومحبوبته – ومهاجرا بذاته وأحلامه المنكسرة.

ومازال شاعرنا متأثرا منذ ارتحاله، فيلعب المكان في شعره دورا مهما، أكدّ عليه بصورٍ حجاجية تتمثل في عدم السيطرة على حواسه فيبكى شوقًا لفراقه، وحاملا معه انكساره وألمه وحنينه إلى وطن يشتاق إليه، ولكن انكساره كان سببًا لرحيله مما أدى إلى السهر وقلة النوم وقلة اشتهاء الطعام والشراب بالإضافة لذكرياته في مرابعها وجمالها في كل فصول السنة تاركا داخل نفسه مشاعر حزينة ومنكسرة فيَحْمِلُ قلبه ألما دائما مدى حياته، فيقول: [1]

قِفا ودّعا نَجْدًا وَمَن حَلَّ بالحِمَى وَقلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنا أن يُوَدَّعا

(1) المصدر السابق – ص ١١٠.

بِنَفْسِي تِلْكَ الأَرْضُ، ما أَطْيَبَ الرُّبا وَما أَحْسَنَ المُصطافَ والمُرَبَّعـا

وأذكُرُ أيـامَ الـحِمَى، ثُـمَّ أتـثنـي على كبِدي مِنْ خَشْيَة أنْ تَصَدَّعـا

فَلَيْسَت عَشِـيّات الـحِمَى بِرَواجِعٍ عَـليْك، ولكن خَـلِّ عَيْنَيْك تَدْمَعـا

وتتجلى حجاجية الرفض في عدم رضائه عن تصرفات أهله وزمانه، إنها لعبة التمرد، فيرجع انكساره إلى تلك الأسس التي تعامل بها من قِبَلهم، فتأتى النتيجة المترتبة على ذلك حاملة لكل المشاعر السلبية التي أدت إلى كسر ذاته ونفسيته..

وعلى الوجه المقابل تُظْهِرُ الصيغ الحجاجية مدى حبه لوطنه ويبدو ذلك عبر هذه اللقطات التصويرية التي تعلى من قيمة الوطن فرائحته " كرائحة المسك التي يخالطها العنبر، إن صيغة الحنين إلى المكان تجعله في تذكر دائم وفى ترقب لكل ما يرد من نواحي بلاده .. يقول الشاعر: [١]

إذا ما أتتنا الريح من نحو أَرْضِكُمُ أتتنا بِرِيّاكُمْ فطـاب هـبوبـها

أتتنـا بطـيب المِسْكِ خـالَطَ عَـنْبَرًا وَريحِ الخُزامى باكَرَتُها جَنُوبُها

ويقول أيضا: [٢]

ألا حَبَّذا نَـفَـحـاتُ نَـجْـدٍ ورَيّا رَوضِهِ بَعْدَ الـقِطـار

وَأَهْلُكَ، إِذْ يَحُـلُّ الـحَـيُّ نَجدًا وأنت على زَمـانِـك غَيْرُ زارِ

شـهورٌ يَنْقَضِينَ وَما عَلِمنـا بِـأنصـافٍ لَـهُنَّ ولا سِرارِ

---

(١) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٦٣.

(٢) نفسه – ص٩٥.

يئسْتُ مِنْ الحَياةِ،وطالَ حُزْني فَقَـلْبي مُـوْجَعٌ، والدَّمْعُ جارِ

إن حالة القلق والتوتر والاضطراب الدائم الناتج عن بالانكسار النفسي يفسر لنا هذا الانعكاس النفسي المجسد لكل الظواهر الطبيعية ومحاولة ربطها بديار المحبوبة ... لذا فإن شاعرنا يستخدم جوانب ترتبط بالمكنون النفسي، مثل (بطء الوقت ، وثقله ، وعدم التوازن) بما يبرهن برهانا قاطعا على الاضطراب النفسي المسيطر عليه، والمسبب لاستمرار حالة الانكسار، وتزايد حدة الهم والحزن.

إن لحظات الفرح والسعادة في حياة الإنسان تأتى خلسة، وهذا ما دفعه إلى اختتام أبياته بكلمات رنّانة كلها تحمل طابع الانكسار **(يئسْتُ – طال – حُزْن – مُوْجَعُ – الدَّمْعُ)**، فهو يأس من الحياة التي طال بها حزنه وألمه وانكسار قلبه، فسيطر عليه الوجع، والدمع المجاور له ولا يغادره قط .

إن الوقوف على شعر الصمة يظهر لنا تلك المشاعر المنكسرة نتيجة ابتعاده عن دياره، وأمنياته في العودة إلى دياره وأهله، وتأتى الروابط الحجاجية شاهدة على قيمة المكان والتعلق به، فكلما توجه ببصره يجده متعلقا بنجد على الرغم من بعدها عن مرمى البصر ويظل النظر متوجها إليها حتى وإن لم يدركها، فهو حنين المشتاق لرائحه دياره وترابها، لذا يأتي التساؤل متى يستريح القلب؟ ومتى ينتهي عذابه وانكساره وقهره؟ فالظروف جاءت ضّده وأجبرته على الارتحال والبعد، فيقول: [1]

أُكَـرِّرُ طَـرْفِي نَحْوَ نَـجْـدٍ وإنَّنــي إليه، وإن لَمْ يُدْرِكِ الطَّرفُ، أنظُرُ

(1) الصمة بن عبدالله القشيري (حياته وشعره) – ص١٠٢.

متى يَسْتَرِيحُ القلب؟ إمّا مُجاوِرٌ بِحَرْبٍ، وإمّا نازِحٌ يَتَذَكَّرُ

الشاعر والمجتمع متعارضان – وخاصة الأهل – لما وضعه المجتمع من عقبات في طريقه كان لها الأثر البالغ في الانفصال عن المحبوبة، ودفعته هذه القيود إلى الاغتراب النفسي والارتحال المكاني، فهو كغيره من العشاق الذين رحلوا عن الديار محملين بالفشل العاطفي والعذاب النفسي، وقد جسد أستاذنا الدكتور عبد القادر القط " رحمه الله " في قوله: "هؤلاء المحبون على اختلاف في التفصيلات والبداية والنهاية: يحب الشاعر صاحبته، وقد تكون ابنة عمه أو من فتيات الحيّ، حباً ينشأ من أول نظرة، ثم يحرم لقاءها أو زواجها للفقر أو لسطوة التقاليد، فلا يملك إلا أن يتحول إلى الشعر يتغنى فيه بحبه، ثم تتزوج صاحبته فتزداد لوعته اتِّقاداً ويزداد الفراق حدّة ويصبح الحبّ عنده مجرد شعور مطلق وذكرى مجردة يترجمها إلى صور فنِّيّة ونفسيّة في شعره "[١]، فالقصة دائما تنتهى بالفراق والهجر والارتحال بل وصلت للموت والجنون نتيجة ما وقع عليهم من انكسار وخيبة أمل وظلم فيقول الشاعر[٢]:

أَرَى الدَّهْرَ بِالتَّفْرِيقِ والْبَيْنِ مُوْلَعًا وَلِلْجَمْعِ ما بَيْنَ الْمُحِبّينَ آبِيا

فَأُفٍّ عَلَيْهِ مِنْ زَمانٍ، كَأَنَّني خُلِقْتُ وَإِيّاهُ نُطِيلُ التعاديا

---

(١) في الشعر الإسلامي والأموي – د. عبد القادر القط – ط١ – ص ٧٤ – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٩٨٧م.

(٢) الصمة بن عبدالله القشيري (حياته وشعره) – ص١٣٨.

إن الشاعر يقف متأسيا أمام هموم الزمن وانكساره الناتج عن هذا الحرمان، فقد حولته الأيام إلى إنسان مهزوم، يحاول أن يجد لنفسه مخْرجا من هذا الانكسار تاركا خلفه ووراءه كل شيء.

إنها مرحلة البحث عن الذات بكل جوانبها ويمكن لنا تمثيل ذلك عبر هذه الرؤية:

المجتمع + الحب ← (النتيجة) رفض وفراق

الشاعر + المجتمع + الحب ← (يؤدى إلى) الانكسار والكره

الشاعر + الدهر + الحب ← (يؤدى إلى) الانكسار والكره

الشاعر + الحبيبة ← (الموقف الناتج) الخذلان والفراق

الشاعر + ذاته(نفسه) ← (انكسار ويأس) ارتحال مع غربة دائمة

ولقد أصبح الدهر أحد أدوات الانكسار لديه، وقد حاول أن يجسد لنا هذا الأمر بمجموعة من الصيغ الحجاجية المرتبطة (بالفراق ، اليأس ، الغربة ، الألم) نلمح ذلك في قوله:[1]

إذا بِنْتِ، إلاّ ماعَدا النّأيُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكِ، لَمْ يَلْزَمْكِ ما فعَلَ الدَّهْرُ

لقد ربط الشاعر في حجاجه بذلك الأمر المتمثل في اجتماع الدهر والقبيلة عليه، بما يشبه اتفاقا بين الطرفين على كسر ذاته وتحطيم معنوياته، وسببا لفراقه وهجره، وامتلاء جنبات حياته باليأس والحزن فخيم على طرقاته

(1) الصمة بن عبدالله القشيري (حياته وشعره) – ص١٠٠.

القهر وبدا الاضطراب النفسي علامة واضحة تبرهن على حاله وما انتهى إليه.

٢- الانكسار والبعد عن المحبوبة:

تعد الدوافع النفسية علامة من علامات الانكسار، ولعل أبرز هذه الدوافع هو البعد عن المحبوبة، فالعاطفة وما يرتبط بها من " شعور إنساني ظاهرة مستمرة في كل العصور، والعصر الأموي يتميز عن غيره ببروز المشاعر العذرية في قصائد الغزل، أكبر من ذي قبل، حيث تخلل تلك التجربة نوعان من الصراع: صراع داخلي نفسي، يتحول في كثير من الأحيان إلى رغبة مكبوتة" [١]، وصراع خارجي " يدور بين الشاعر والمجتمع، الذى يقيم الحواجز، ويضع العراقيل؛ ليحول دون إتمام ذلك الحب، ولم شمل الأحبة"[٢]، فيصيب الشاعر باليأس والإحباط والانكسار.

ومن ثم أصبح الانكسار نمطًا في أشعاره، وضحه الشاعر عبر أطر حجاجية تتجلى في معاتبته للمحبوبة، ويبدو الحجاج وسيلة برهان على حزنه وأسفه، وعلى مشاعره التي أهدرت ما بين الغربة هجرا للأهل، فتأتى المعاني مجسده للمكنون النفسي وما يحمله من مشاعر منكسرة، ومن ثم يتحول الفراق إلى سبب رئيس في انكسار القلب والنفس معا بما يبرهن لنا على حالة الشكوى المستمرة نتيجة الفراق وهو ما نمثله بالشكل التالي:

---

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري – يوسف بكار – ص ٢٤ – ط١ – دار المعارف – القاهرة – مصر – ١٩٧١م.

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي – شوقي ضيف – ص١٠٦ – ط١٠ – دار المعارف – القاهرة – مصر – ١٩٥٩م.

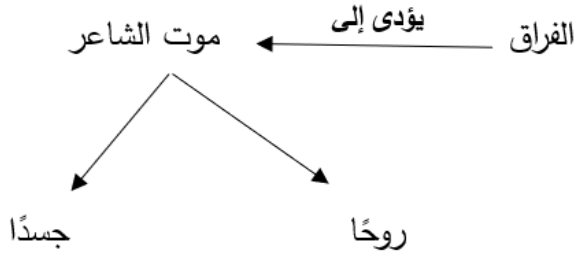

إن حجاج الرفض ليس رفضا للمحبوبة إنما هو رفضٌ لكل المسببات التي أدت إلى انتهاء علاقة المحب بالمحبوبة، ما بين الرفض المجتمعي، والتغريب النفسي المؤدى إلى انكسار الذات.

فالشاعر كلما تَذَكّر المحبوبة فاضت شكواه حزنا وألما على فراقها، فيشكو لأصحابه عن وجعه وحزنه وانكساره، وبهذا يدرج ذاته داخل القضية الأزلية الشائكة المعروفة وهي الحب ودائما ما تنتهي بالفراق وترك المحبوبة، والارتحال والتوجه للمجهول.

الشاعر يجسد انكساره في قوالب حجاجية متمثلة في هجر وفراق للمحبوبة، فهو عاجز لا يستطيع الدفاع عن حبه، كما أن الطرف الآخر (المحبوبة) في موقف مضاد له، ومن ثم لم يعد باستطاعته السيطرة على أفعاله وتصرفاته، كما أن المصير المجهول والفشل في تحقيق الحلم وهو(الزواج) جعله يستسلم للواقع المرير، فيهرب حاملا معه شعور الانكسار وخيبة الأمل .

والصمة عبر أبياته بدا منكسرا ومتألما، وأصبح على يقين بأن الحلم لن يتحقق، وفى رحيله وهجره محاولة للنسيان، إلا أن تباريح العشق لا زالت تسيطر عليه، وتأتي آهاته معبرة عن التعذيب النفسي، إنها مرحلة من مراحل

استعذاب الألم، فلهيب الشوق أحرقه، وتسارع أنفاسه إنها مرحلة أشبه بمراحل الموت..

لذا فإن العذاب والانكسار أهم ما يسيطر على كافة أشعاره، يقول الصمة:[١]

لعمرى، لَئِن كُنْتُم عَلى النَّأي وَالْقِلَى بِكُمْ مِثْلُ ما بي، إنكُم لَصَديقُ

إذا زَفراتُ الحُبِّ صَعَّدن في الحَشا رُدِدْنَ، وَلَمْ يُنْهَجْ لَهُنَّ طَريقُ

ويمكن تجسيد ذلك الأمر بهذا الشكل:-

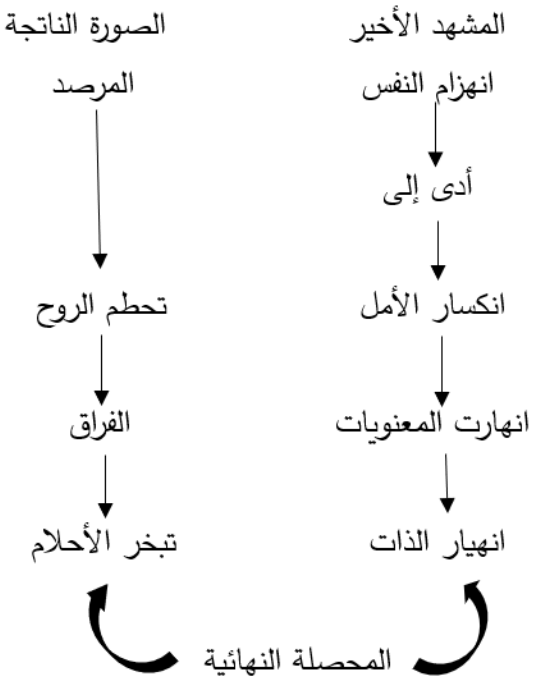

الموت البطيء ← موت الشاعر وتخلي الأهل عنه

(١) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص١١٩.

إن عرض الصمة لقضيته جاء عرضا منطقيا متسلسلا فكل جزئية حجاجية تسلمنا للأخرى، حتى نصل إلى المحصلة النهائية .

وفي موضع آخر يقول : [1]

ألا قاتَل اللهُ الحِمى مِن مَـحَلَّةٍ وَقـاتَل دُنْيـانـا بِهـا كَـيْفَ وَلَّـتِ

غَنِيْنا زَمانًا بِالحِمى ثُمَّ أَصْبَحَت عِراصُ الحِمَى مِنْ أَهْلِها قَدْ تَخَلَّتِ

ونَادى المَنادى بالفِراقِ فَقَوَّضُوا بُيوتًا تـُرى أَطْنـابُها حَيْـثُ شُدَّتِ

شَدَدْتُ بِثَوْبي حَشْوَةً ضَبَثَتْ بِها يَدُ الشَّوْقِ يَوْمَ البَيْنِ حَيْنَ احْزَأَلَّتِ

وَقُلْتُ لأَصْـحابي غَـداةَ فِراقِهـا وَدِدْتُ البُحورَ العامَ بالناسِ طَمَّتِ

فَنَقَطِعَ الدُّنيا التي أَصْبَحَتْ بِهِمْ كَمِثْل مُصاباتٍ على النَّاسِ عَمَّت

ولـكِنَّمـا الـدنيـا كـفيْءِ غمـامَـةٍ أَظَلّـت بِـغَيْـمٍ سـاعَةً واضْمَحَـلَّتِ

هذه الأبيات تحمل في طياتها مشاهد الارتحال عن القبيلة، وعن الديار التي أقام بها زمنا طويلا، وتظهر مدى حززنه لتحوله إلى أماكن وديار أخرى غير التي نشأ فيها.

([1]) نفسه – ص٦٦.

وهو ينقله لنا عبر مشهد تمثيلي يمكن تصويره كالتالي:

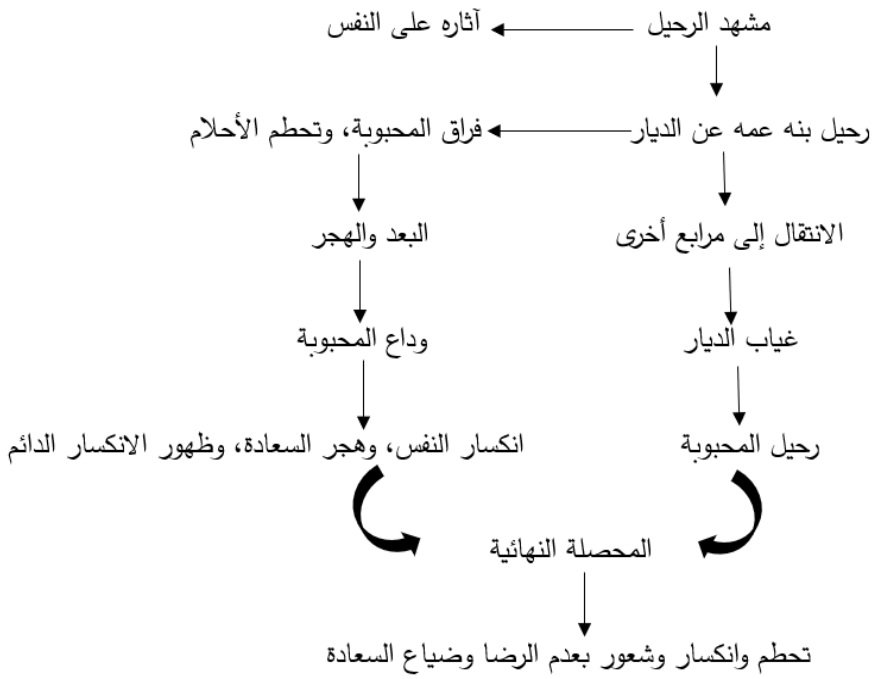

إن شاعرنا يستخدم الاستدلال المنطقي بشكل تراتبي فكل مسلمة توصلنا إلى الأخرى، لنصل معه في النهاية إلى النتيجة المرجوة التي يحاول أن يصل إليها الشاعر، ونحن على قناعة تامة بكل ما قال أو سيقول.

ويقول أيضا: [١]

خَلِيلَيَّ، فِي طَيّا أَقِلّا مَلامَتي فَقَدْ بَخِلَتْ طَيّا عَلَينا، وَضَنَّتِ

لعمرى، لَئِن أَحْبَبْت طَيّا، وآثَرَتْ عَلَيَّ العِدا، ما سُنَّة العدل سَنَّت

أَظَلُّ أُمَنّيها الفُؤَادَ سفاهَةً إذا ما انْطَوَتْ نَفْسى على اليأسِ مَلَّتِ

(١) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٦٨.

فَـوَجْدِي بِـطَيّا وَجْدُ أشْمَطَ راعَهُ بـواحِـدِه داعـي الـمَـنـايـا أَلـمَّـتِ

وَوَجْـدِي بِـطَيّا وَجْـدُ بِكْرٍ غَريرةٍ علـى والِـدَّيـهـا فـارقـاهـا فَـجُنَّـتِ

إن تجربة الفشل العاطفي التي أصبحت إطارًا لحياة الصمة، تلك الحياة فرضت عليه جانبا من التمني، هذا التمني يعد تمنيا لشيء كونه مستحيلا، لذا ظهرت أوجه الانكسار الذاتي متعددة، جاءت عبر صور تشبيهية وتمثيلية، وأصبح التعلق بالمحبوبة يعادل تعلق فتاة بوالديها، وتأتى حدة الانكسار في صورة الخوف من المجهول كفتاة رحل عنها أهلها، فلم يعد الأمان موجودا كما كان، وكل شيء أصبح مفقودا، وبالنسبة له فقد ضاع الأمان بهجر الأهل ووقوفهم ضد أمنياته، وأصبحت مشاعر الخوف والقلق والضياع أهم مظاهر الانكسار عنده.

لذا بدا الإقناع وسيلة من الوسائل التي يعتمد عليها الشاعر للبرهنة عما هو فيه، بشكل حجاجي ممنطق، فهو سلم حجاجي تصاعدي، بدأ برفض (ريَّا) له، وما نتج عن ذلك الرفض من ألم وحزن وقهر سيطر على كل أبياته، بل إن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فلقد كان الرفض دافعا من دوافع الرحيل، وأصبح الصبر وسيلة من وسائل التعويض النفسي عما هو فيه، يقول الصمة:[1]

وكنْتُ أرى نَجْدًا وَريّا مِنَ الهَوى فَما مِنْ هَوايَ اليَوْمَ ريّا ولا نَجْدُ

فَدَعْنِـيَ مِنْ ريّا ونَجْدٍ كِلَيْهِما وَلَكِنَّني غادٍ إذا ما غَدا الجُنْدُ

(1) نفسه – ص ٨٧.

وأمام البخل بالوصال تأتى الحرقة سببا للمعاناة، وحزنا على النفس أمام أعين الشامتين، فيصبِّرُ نفسه آملا ألا يظهر ضعفه وانكساره لما تعرض له من صدَّ وهجر من قبلها والتي أسماها هنا (سلمى) فيقول: [١]

ألا مَنْ لنَفْسٍ مُسْتَخِفٍّ جَليدُها وَسَلْمى مُبينٌ بُخّلُها وَصُدُودُها

فالصمة في عينيته يقول في مفتتحها: [٢]

حننت إلى ريّا ونّفْسُكَ باعَدَتْ مَزارَكَ مِنْ ريّا وَشَعْباكُما مَعا

لقد تناقل العديد من مؤرخي الأدب العرب القدامى عينيته في مختاراتهم الشعرية، لما أضافته من مشاعر حنين في نفوس العشاق والمحبين الهاجرين والمهجورين ومن آلامهم وانكسارهم الفراق والنأي عن الأوطان. [٣]

في مطلع عينيته يحاور الشاعر نفسه، محاورا لذاته ومعبرا عن تفانيه العاطفي، ومن ثم جاءت مفرداته اللغوية حُجَّةً على قوله وفعله **(حننت – نفسك – مزارك – شعباكما)**، إن حوار الذات جعله يخلع ذاته ذاتًا أخرى يحاورها ويحاكمها ويحاسبها كيف قرر الارتحال وترك حبيبته وأهله أين كان عقله وقت الرحيل؟ ثم يتذكر موقف الأهل عندما تقدم لخطبة ريا ورفضه، وصدّ ريا له كان السبب الأساسي في الرحيل، وتسيطر عليه أيضا مشاعر الحنين المختلطة بالانكسار فقد خلّف الرفض جرحا في قلبه وكسرا في ذاته، بل ظل هذا الجرح ينزف فلا يقوى على العيش في دياره، واتخذ قرار الهجر

---

(١) نفسه – ص ٩٠.

(٢) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٠٩.

(٣) نفسه – ص ٩٠.

الأبدي بلا رجعة، مبرهنًا على ذلك في صور حجاجية عبر من خلالها عن مشاعره المضطربة، مرة بالحنين، ومرة باللوم، وتارة بالشوق، وتارة بالعتاب...

وما ذكره لاسم (**ريَّا**) مرتين إلا دلالة على مدى الشوق والحنين إليها، وبرهانا على الانكسار العاطفي الذى ألم به، ومن ثم يأتي الاستفهام الاستنكاري مجسدا لكل هذا الأمر، فهل ريا تشتاق إليه، أو هل تعانى من ما يعانيه من ألم ومن تأزم نَفْسِيّ؟

إن كل هذه التساؤلات ما هي إلا تجسيد للحالة التي هو عليها، فالبعد عن ديار الأحبة، وهجر الأهل، والرحيل عن المحبوبة، كلها هموم، وتعذيب للنفس، واستعذاب للألم، سببه الأول والأخير هو القهر والتسلط المجتمعي.

ويقول أيضا: [1]

خَليليَّ، لا أزدادُ إلّا مَوَدَّة لَطيًّا، وَإنْ عّدَتِنَي العُدَواءُ

إن حديث الصحاب ما هو إلا توضيح لحالة الشوق والمودة تجاه المحبوبة، فلا شواغل تشغله عن حبها، وعلى الرغم من لوعة الشوق والوجد، إلا أنه يدرك أن سيظل حبيسًا لهذا الحب الذي لا طائل من ورائه، وهنا يتملكه شعور الاكتئاب والقلق النفسي الناتج عن هذه التجربة الفاشلة.

([1]) نفسه – ص٥٣.

يقول الصُّمة في موضع آخر: [١]

لَعَمْرُكَ مـــا ريّــا بِـذاتِ أمـانَةٍ وَلا عِنْدَ ريّا للْمُحِبّ جَزاءُ

وَلا حَبْلُ طَيّا يَوْمَ قاطَعْتُ أُسرَتي بِباقٍ، وَلا طَيّا بِذات وَفاءِ

في البيتين السابقين يرسم الشاعر لوحة فنية مقنعة لحالة التمرد على ريا وأمثالها، فهي لا تبادله نفس المشاعر العاطفية، ولا يجد استجابة من لدنها، على الرغم مما صنعه من أجلها، فقد قابلت ما فعله بالنكران وعدم الوفاء منها..

إن قصة العشق قد تكون لها أو لغيرها من فتيات الحي أو من الأحياء المجاورة، وقد تكون قريبة أو غريبة، بيد أن الحب نشأ منذ الصغر، وحرم من الزواج منها، أو البقاء بجوارها، نتيجة لعجزه وفقره، عجزه في الدفاع عن حبه أمام قيود المجتمع، وفقره في تقديم ما هو مطلوب منه لإتمام زواجه منها، إنها لعبة الحرمان والتأرجح النفسي بين الرضا والسخط، واليأس والأمل، محاولا من حين إلى آخر أن يرى صاحبته لحظات عارضة في غفلة من الأهل ، ثم تتزوج صاحبته فتزداد لوعته اتقادًا ويزداد الفراق حدة ويصبح الحب عنده مجرد شعور مطلق وذكرى مجردة يترجمها إلى صور فنية ونفسيه في شعره."[٢]

([١]) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٥٣.

([٢])في الشعر الإسلامي والأموي – د.عبد القادر القط – ص ٧٤ – ط١ – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

إن التشتت الناتج عن الانكسار دفعه إلى السؤال كيف يرحل ويترك حبيبته بعدما مضى عمرا معا في سرور وابتهاج حتى جاء الحكم عليه بالبعد وهو ما أوضحه في قوله: [1]

إنْ أُفارِقَهُمُ فَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا ... في سُرورٍ مِنْ قُرْبِهِمْ وابْتِهاجِ

فَرَمَانا الأيّامُ أغْفَلَ ما كُنْـ ... ـنا عَلَى غَفْلَةٍ بِبَيْنٍ مفاجِي

فانْصَدَعْنا صَدْعَ الزُّجاجَةِ بانَت ... كَيْفَ لِيْ بانصِداعِ صَدْعِ الزُّجاجِ

تظهر الأبيات جوانب الانكسار المتعدد الأوجه ما بين حزن على حياته، وألم على حبيبته، فجاء التعبير عن فجيعة الفقد، لقد فرقت بينهما يد الزمن والعادات والتقاليد..

وقد رسم ذلك عبر إطار حجاجي تمثيلي، فقد شبه حاله في كل يوم ومدى ما يعانيه من تمزق نفسي، بكسر أو صدع الزجاج الذي يتزايد يوما بعد يوم، وهو ما يوضح أثر الفجوة بينهما وما نتج عنها من ابتعاد وحرمان.

٣- الأبعاد الحجاجية لانكسار الذات :

إذا نظرنا إلى ذات الشاعر نجدها مسئولة عن كل تصرفاته الذاتية " فهي جوهر الشخصية وحجر الزاوية في الشخصية الإنسانية ومن أهم عناصر التوجيه النفسي والتربوي وينظم السلوك أيضا، فمفهوم الشخص لذاته يؤثر تأثيرًا بالغًا في توافقه الشخصي والاجتماعي".[2]

([1]) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٧٥.

([2]) التوجيه والإرشاد النفسي – د. حامد عبد السلام زهران – ص٩٣ – ط٣ – عالم الكتب – القاهرة – مصر – ٢٠٠٥م.

فذات شاعرنا محطمة تائهة وروحه معذبة لا تجد مستقرا فهو هائم على وجهه لا يستطيع أن يثبت جذوره في مكان جديد أو تهدأ نفسه الثائرة، وظهر كل ذلك بشكل حجاجي وبرهان تَمَثَّل في بكاء العين **(الدموع)** أسفا على نفسه وحبيبته وموطنه.

فشاعرنا تردد عنه أنه أعور بيد أنني لم أجد ما يشير إلى ذلك عند الجاحظ بأنه من ذوى العاهات من العَربِ في كتابه (البُرصانُ والْعُرجانُ والعُميانُ والحُولانُ) ولا في كتاب الصَّفَدِيُّ (الشُّعور بالعُور) وشاعرنا ذاع صيته بين شعراء العرب بما يؤكد على أنه كان سليم العين أو صحيح العينين . [١]

شاعرنا هنا تملّكه الحزن وهو درجة من درجات مراحل الانكسار النفسي:

فالمراحل التي يمر بها الشاعر وصولا للانكسار هي:

١- الصدمة

٢- الحزن

٣- عدم القدرة على التحمل

٤- اليأس

٥- الانكسار

---

(١) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص٤٢.

فالشاعر هنا صُدِم بواقع أليم تمثل في عدم إتمام زواجه من محبوبته بسبب رفض الأهل، فغلب عليه الحزن، وظهر القهر واضحا على ذاته، وعدم قدرته على تحمل الصدمة فبدا حزينا في معيشته فجاء قرار السفر تاركا الأهل والحبيبة والموطن.

ومن ثم مرّ الشاعر بأيام من التعاسة والشقاء والأسى نتيجة لحاله وجسّد كل ذلك في البكاء على الذات.

لذا يأتي شعره مفعما بالجوانب الحجاجية التي تبرهن على ذلك فهو محمل بالحزن لا يستطيع العيش، ويحاول جاهدا أن ينسى، إلا أن كل المحاولات باءت بالفشل فينال منه الحزن ويأتي البكاء معبرا عن مكنون نفسه فيقول معبرا عن ألمه وفقده وانكساره: [1]

بَكَتْ عَيْنِي اليُمْنَى، فلما زَجَرْتُها عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أَسْبَلَتا معا

العين أحد حواس الإنسان فهي هبه من الله تعالى لكى يفهم واقعه وإدراك ما يحيط به، ومن غيرها بفَقَدَ الإنسان التواصل مع العالم الخارجي، فالعين في الأصل اللّغويّ:" العين والياء والنّون أصل واحد صحيح، ولقد تعدّدت معاني العين اللّغويّة، يدلّ على عضو واحد به يبصر وينظر، ثمّ يشتقّ منه".[2]

والمعنى الاصطلاحي للعين " أنها عضو مجوف كروي الشكل، يتألف جدارها من ثلاث طبقات، الخارجية واقية، والمتوسطة مغذية،

([1]) المصدر السابق – ص٤٢.

([2]) معجم المقاييس في اللغة – أحمد بن فارس –ت: شهاب الدين أبو عمرو – مادة (عين) – ص٧٢ – ط١ – دار الفكر – بيروت – لبنان – ١٩٩٤م.

والداخلية حساسة، فالأولى تكسب العين شكلها العام، والثانية تنظم كمية الضوء الداخلة إلى العين، والثالثة تنقل الإحساسات الضوئية إلى الدماغ وبوجود الدموع يغذى العين تغذية جيدة، وكبتها يسبب ضررًا كما ذكر العلماء."[١]

ولقد احتلت العين مساحة كبيرة من الشعر العربي، ونجد ارتباط الشاعر بالعين في المكان وخاصة (البكاء على الديار أو الطلل) فالدموع هي السبيل للتعبير عن حزن الشاعر ومشاعره البائسة لما حل على الديار من تغير ووحشية؛ فأصبح المكان مقفرا خاليا من أهله، فقال امرؤ القيس:[٢]

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

وقال أيضا :[٣]

عوجا عَلى الطَلَلِ المَحيل لِأَنَنا نَبكي الدِيارَ كَما بَكى اِبنُ خِذامِ

وارتبطت العين أيضا بالبكاء على المحبوبة وذلك لرحيلها وفراقها للأبد فتسيطر على الشاعر مشاعر الحزن والشوق واللوعة والفراق ولا سبيل أمامه غير البكاء حرقا على فراقها فيقول عنترة :[٤]

---

(١) انظر إلى:

أمراض العيون " الموسوعة الصحية " – محمد رفعت – ص١٣: ١٨ ، ص٤١ بتصرف – عز الدين للطباعة والنشر – بيروت– لبنان – ١٩٨٦م .

(٢) ديوان امرؤ القيس – تحقيق د.محمد أبو الفضل إبراهيم – ص ٩ – ط٢ – دار المعرفة – بيروت – لبنان– ١٩٨٤م.

(٣) المصدر السابق – ص ١١٤

(٤) ديوان عنترة بن شداد – شرح د. يوسف عيد – ص٢٤٨ – ط١ – دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م .

ما بالُ عَينِكَ لا تَمُلُّ مِنَ البُكا رَمَـدٌ بِعَينِكَ أَم جَفاكَ كَـراهـا

شكلت العين ملمحا واضحا من المظاهر الحياتية عند الكثير من الشعراء فقد جاءت العين مرتبطة بأنماط من الموضوعات المجسدة للمديح أو الرثاء أو الظلم والموت.

وقد حاول الصمة في شعره أن يجسد انكساره النفسي بصور بكائية نتيجة فراق المحبوبة والأهل والوطن وهو ما ذكرته في الصفحات السابقة وإذا ما تأملنا البيت التالي نجد نمطا من أنماط البكاء يقول الصمة : [1]

بَكَتْ عَيْنِي اليُمْنَى، فلما زَجَرْتُها عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أَسْبَلَتا معا

في هذا البيت أراء مختلفة فالمرزوقي قال في شَرْح الحماسة:" إنما قال (**بَكَتْ عَيْنِي اليُمْنَى**) لأنه كان أعور مُمَتَّعًا بعينه اليسرى، والعوراء لا تدمع" [2]، واختلف رواة القصيدة في هذا بالبيت فمنهم من يقول أنه أعور العين اليمنى فتكون الرواية هكذا : [3]

بَكَتْ عَيْنُك اليُسْرى، فلما زَجَرْتُها عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ، أَسْبَلَتا معا

وهناك من نفى كون الشاعر أعور وذلك لما جاء في شعره من أبيات تؤكد ذلك فقال:[4]

---

(1) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ٤٠

(2) شرح ديوان الحماسة – أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني – تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون – ص١٢١٨ – ط١ – دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

(3) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٠٧.

(4) نفسه – ص ٩٩.

فَـحالُ عَيْنـيَ من يَوْمَيْكِ واحِدَةٌ تَبْكي لِفَرْطِ صُـدُودٍ، أو نَـوى دَارِ

وقال أيضا: (١)

وَأَذْكُـرُ أَيّـامَ الحِمـى ثُمَّ أَنـثَنـي عَـلى كَـبدي مِن خَشيَـةٍ أَن تَـصَدَّعا

فَلَيْسَتْ عَشِيّات الحِمَى بِرَواجِعٍ عَلَيْـكَ، ولـكِنْ خَـلِّ عَيْنَيْكَ تَـدْمَعـا

لقد ارتبط البكاء ها هنا بحالة من حالات اليأس في تحقيق الحلم بما يبرهن على استمرارية الانكسار، وقد مَثَّل المكان بعدا إنسانيا خالصا لديه فجاء البكاءُ تعبيرا عن الهجر وعن تحولات المكان من العمار إلى الخراب وهو ما نصت عليه الأبيات السابقة، ويقول أيضا: (٢)

خليلي عوجا مِنكُم اليَومَ أودعا نَحـيِّ رسومـا بـالقُبَيبَـةِ بلقعا

أَرَبَّت بِهـا الأَرواحُ حَـتّـى تَنَسَّفَت مَـعـارِفُها إِلّا الصَفيـحَ المُوَضَّعا

أصبح التأمل المكاني مدعاة للبكاء، وجاء في شكل نمط حجاجي يجسد واقع الانكسار، والرؤية قد تكون بالعين أو بالقلب أو بالعقل وهذا ما ذكره ابن منظور وأكده عليه بأن الرؤية " في العين تتعدى إلى مفعول واحد أمّا الرؤية بالقلب أو العقل فتتعدى إلى مفعولين" (٣) فانكسار القلب تترجمه

---

(١) نفسه – ص ١١٠.

(٢) نفسه – ص ١٠٦ ، ١٠٧

(٣) لسـان العـرب – ان منظـور – مـادة (رأى) – م٤ – ص١٢ – دار الحـديث – القاهرة – مصر – ٢٠٠٣م.

العيون من حزن وبكاء، ومن ثم يعيش الشاعر حالة نفسية مريرة، فهو يائس من الحاضر كلما تذكر الماضي، وأصبح باكيا عليه.

فيقول الشاعر: [1]

أَتَبْـكِى عَلــى ريّا ونَفَسك باعَدَتْ مَـزارَكَ مِنْ ريّا وشَعْبــاكُما مَعا

فَـما حَسَنٌ أن تَأتِى الأَمْرَ طائِعًا وتَجْزَعَ أن داعى الصَّبابَةِ أسْمَعا

كــأنَّكَ لَـمْ تَشْهَدْ وَداعَ مُفــارِقٍ وَلَـمْ تَرَ شَـعْبَي صاحِبَيْنِ تَقَطَّعا

تَحـمَّل أهْـلـي مِنْ قَنّي وغــادَرُوا بــه أهل ريّــا حِينَ جِيدَ وَأمْرَعا

ألا يــا خَليـلَي اللذين تَواصَـيــا يــلَوْمِي إلا أن أطيــعَ وأضْـرعا

قِفا، إنَّه لا بُدّ مِنْ رَجْــعِ نَظْـرَةٍ مُصَعَّدَةٍ، شَتى بِها القومُ، أو مَعا

فإني وَجَدْتُ اللومَ لا يُـذْهِــبُ الهوى ولكِن وَجَدْتُ اليَأسَ أجْدى وَأنْفَعا

لِـمُغْتَصَـبٍ قَدْ عَزَّه الـقَـوْمُ أمْـرَهُ يُـسِرُّ حَــياءً عَـبرَةً أنْ تَـطَلَّعـا

تَــهـيجُ لهُ الأحــزانُ والذّكْرُ كُلَّما تَرنَّمَ، أو أوفى من الأرْضَ مَيْفَعا

الأبيات السابقة تحمل في طياتها أشكال الانكسار من ذاتي ونفسي وعاطفي وجسدي وتمثل ذلك في الأفعال **(أتبكى – باعدت – يفارق – تحمَّل – غادروا – يُذهب– تهيج)** فانكسر ذاتيا عندما رُفِضَ، ونفسيا لتخلى الأهل عنه، وعاطفيا لفقده ريّا حبيبته، لم يجد سبيلا إلا بهذه الوسائل التي تبرهن على انكساره كالبكاء وليس بالعين فقط إنما بالقلب هو مستودع الأحلام والأسرار والآمال والعشق، فقلبه مجروح ينزف باكيا على حبيبته

([1]) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٠٩.

وقرار البعد عنها بإرادته تاركًا لها ولموطنه، وعلى أهل ريّا الذين رحلوا أيضا، وعلى ما وصل إليه من ضياع انتمائه فينظر نظرة باكية متفحصة لموطنه وأهله قبل الرحيل، فيلوم نفسه واللوم لا يُذْهِب الشوق والعشق فيعيش منكسرا وبائسا ويائسا لقهره وغصبه على ترك حبيبته، ولم يَلْبُث حتى حكم على ذاته بحزن وانكسار أبدى نراه في بكاء العيون و في النفس اليائسة المتألمة.

ونجده يسهب في البكاء حين يتذكر موطنه، وكأن البكاء يعالج نفسه المنكسرة ويشفى قلبه النازف المحطم، وروحه المشتتة فيقول الشاعر: [١]

ألا مّنْ لِعَيْنٍ لا تَرى قُلَلَ الحمى ولا جَبَل الأَوشال إلّا استَهَلَّتِ

ولا النّيرَ إلا أسْبَلَـتْ وكأنــهـا عَـلَى رَمَدٍ بَـاتَتْ عَلَيْهِ وَظَلَّتِ

لَـجُوجٍ إذا لَجَّتْ، بَكِيٍ إذا بَكَـتْ بَكَت فَأَدَقَّتْ في البُكا وَأَجَلَّتِ

فالشاعر عند تذكر دياره تتصدع نفسه وقلبه فكيف له العيش بدون هويته وتأتى كلماته معبرة عن حجاجية انكساره المتمثلة في العين (ترى – استهلت – أسبلت – رمد – لجوج – بكت – البكا) فشاعر لم يجد أمامه وسيلة إلا البكاء فأصيبت عينيه بالرمد وهو تجسيد لشدة انكساره الناتج عن التمادي في البكاء وعدم الانصراف عنه.

فالقلب والعين وجهان لعملة واحدة فما يصيب العين يكون السبب منه القلب، فجاءت حجية الانكسار النفسي مرتبطا بالبكاء.

---

(١) المصدر السابق – ص ٦٤ : ٦٥.

ويقول أيضا: [1]

ألا مَــنْ لِنـَفْـسٍ مُسْتَخِـفٍّ جَـليدُهـا وَسَـلْمى مُـبيـن بُـخْلُـها وَصُدُودُها

أحــقًّا عِــبـادَ اللهِ أنْ لَسْـتُ نـاظِــرًا إلى الهَضْبِ إلَا عاوَدَ النَّفْسَ عِيدُها

وَإلَا اسْــتَــهَـلَّــتْ عَـبْـرَةٌ بَعْدَ زَفْـرةٍ يُـصَـدّعُ قَـلْبِـي أن يُـلِمَّ صُــعودُها

وإن كُنتُ قدْ عُلّقْتُ مِنْ ساكنِ الحِمَى مُـكَـذِبَة وَعْـدي، صَـدوقًــا وَعـيدُها

وَلَو طَلَبَتْ مِنّي عَلى ذاك في الهوْى زيــادَةَ حُـبٍّ ، لَــمْ أجِـدْ ما أزِيدُها

فأخْفَيْتُ مِنْ أصْحابِي الّشَوْقَ بَعْدَما جـرى مِنْ جُــفونِ المُقْلَتَينِ فَريدُها

وَكــانَ بُكاءُ العَيْنِ مِنْ قبـل ما يُـرى عَلَى أمِّ عَــمْـرٍو، عــادةً تَسْتَعيدُها

الشاعر هنا استخدم نمطا حجاجيا يجسد حتمية انكساره فهو يهنا يحاول التماسك أمام أعين الشامتين ويحاول ألا يظهر ضعف أمامهم، ولكن عينه تفضحه، وتسهب في البكاء وأنفاسه يطول خروجها من صدره لما بها من حرارة تلهبه، فعشقها يزداد في قلبه وتعلقه بها جعله في حالة تألم مستمر ودمعه متواصل لا ينقطع ويجسده في صورة شبة بها الدمع في تتابعه بالدر الذي انفرط سلكه ولا يستطيع إيقافه.

يقول أيضا: [2]

شَرِبْنَـا بِمـاءِ الشَّــوْقِ حـتَّى كـأنّما سَرَتْ فَاسْتَقَرَّتْ في مَفاصِلِنا الخَمْرُ

وظَـلَّ بِـعَـيْنَيْـكَ اللَـجُـوجَيْنِ واكِـفٌ مِنَ الدَّمْعِ أنْ لا يَنْطُقَ الطَّلَلُ القَفْرُ

([1]) نفسه – ص ٩٠ : ٩١.

([2]) الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – ص ١٠١.

علام تَقول: الهَجْرُ يَشْفِى مِنْ الجَوَي ألا لا، ولَـكِـنْ أوَّلُ الـكَمَـدِ الـهَـجْرُ

الشاعر هنا استخدم محاورة تحمل نمطا حجاجيا، وهي محاوره مع الذات تفيض بالدموع حنينا إلى الذكريات وما تحمله من شوق للمحبوبة وعينه أصبحت لا ترى إلا موطن الذكريات.

لقد استخدم الشاعر تراسل الحواس فالعين تدخل مكان القلب والقلب يتحدث بلغة العين تعبيرا عن الذكريات والأحلام والآمال إنما يخص القلب، فيطيل النظر إلى المكان وعينه لا تبرح البكاء، ويخبر نفسه المنكسرة بأنه قرر البعد والهجر لكي يشفى من الشوق المشتعل الصدر، وقد ظن أن البعد والارتحال عن الوطن وسيلة من وسائل الشفاء إلا أن البعد والهجر زاده مرضا وولعًا وبكاءً على ما مضى.

فهرس المصادر والمراجع

١- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري – يوسف بكار ـــ ط١ – دار المعارف – القاهرة – مصر – ١٩٧١م.

٢- الاستدلال الحجاجي التداولي وأليات اشتغاله – د. رضوان الرقبي – مجلة عالم الفكر – العدد٢ – المجلد ٤٠ – أكتوبر – ديسمبر – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – سنة ٢٠١١م.

٣- الأغاني – أبو الفرج الأصفهاني – تحقيق التراث – ج٦ ـــ دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٩٨٢م.

٤- أمراض العيون " الموسوعة الصحية " – محمد رفعت – عز الدين للطباعة والنشر – بيروت– لبنان – ١٩٨٦م

٥- التطور والتجديد في الشعر الأموي – شوقي ضيف – ط١٠ – دار المعارف – القاهرة – مصر – ١٩٥٩م.

٦- التوجيه والإرشاد النفسي – د. حامد عبد السلام زهران – ط٣ – عالم الكتب – القاهرة – مصر – ٢٠٠٥م.

٧- الحجاج في الشعر العربي – د. عصام خلف كامل – ط١ – دار سندباد للنشر والإعلام – القاهرة – ٢٠١٥م.

٨- الحجاج مفهومه ومجالاته "دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة العربية الجديدة " – إشراف د. حافظ إسماعيلي علوي– ط١ – ج١ – عالم الكتب الحديث – إربد – الأردن – سنة ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادي (١٠٣١هـ – ١٠٩٢ هـ) – تحقيق وشرح عبد السلام هارون – ج٣- مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر – ١٩٨٦م .

١٠- الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم – محمد الناصر العجيمي – ط١ – منشورات سعيدان سوسة – تونس – ٢٠٠٣م.

١١- دراسات في الشعر العربي المعاصر – د. شوقي ضيف – ط٩ ـــ دار المعارف – القاهرة – مصر – ٢٠٠٣م.

١٢- دراسات في شعر العصر الأموي – د. عبد المطلب محمود – ط١ ـــ دار الكتب والوثائق – بغداد – العراق – ٢٠٠٨ م.

١٣- ديوان امرؤ القيس – تحقيق د.محمد أبو الفضل إبراهيم – ط٢ – دار المعرفة – بيروت – لبنان– ١٩٨٤م.

١٤- ديوان عنترة بن شداد – شرح د. يوسف عيد ـــ ط١ – دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

١٥- سمط الآلي في شرح أمالي القالي – أبو عبيد البكري – تحقيق عبد العزيز الميمنى – م١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٩٣٥م.

١٦- شرح ديوان الحماسة – أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني – تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون – ط١ – دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

١٧- الصمة بن عبد الله القشيري (حياته وشعره) – جمعه وحققه وشرحه وصنع فهارسه – د. خالد عبد الرؤوف الجبر – ط١ – دار المناهج – عمان – الأردن – ٢٠٠٣ م.

١٨- الفروق في اللغة – لأبى هلال العسكري – حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه جمال عبد الغنى مدغمش – ط١ – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – سنة ١٤٢٢هـ – سنة ٢٠٠٢م.

١٩- في الشعر الإسلامي والأموي – د. عبد القادر القط – ط١ – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – ١٩٨٧م.

٢٠- القاموس المحيط (على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة – تصنيف وإعداد الطاهر أحمد الزاوي – ط٣ – المجلد الأول – دار الفكر – بيروت – لبنان.

٢١- لسان العرب – ابن منظور – مادة (رأى) – م٤ – دار الحديث – القاهرة – مصر – ٢٠٠٣م.

٢٢- مختار الصحاح – الرازي – عني بترتيبه محمود خاطر بك – راجعه وحققه لجنة من علماء اللغة العربية – دار الفكر العربي – بيروت – لبنان – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

٢٣- معجم اللغة العربية المعاصرة – أحمد مختار عمر – ج٣ – عالم الكتب – القاهرة – مصر – ٢٠٠٨م.

٢٤- المعجم الفلسفي – مراد وهبه – دار قباء الحديثة – مصر – سنة ٢٠٠٧م.

٢٥- معجم المقاييس في اللغة – أحمد بن فارس –ت: شهاب الدين أبو عمرو – مادة (عين) – ط١- دار الفكر – بيروت – لبنان – ١٩٩٤م.

٢٦- موسوعة علم النفس – الأكاديمية العربية البريطانية لعلم النفس، www.baha.co.uk

٢٧- النص الشعرى وآليات القراءة – ا.د. فوزي عيسى – ط١ – منشأة المعارف – الاسكندرية – مصر – د.ت.